الباب الحادي عشر

ذكر أيمة الجامع ومسجد سنكرى

أما الجامع الكبير ، فالسلطان الحاج موسى . صاحب ملى هو الذى بناها وصومعتها على خمسة صفوف[1] ، والقبور لاصقة بها من خارجها فى جهة اليمين والمغرب ، وتلك عادة السودان أهل المغرب ، لا يدفنون أمواتهم إلا فى رحاب مساجدهم ، وجوانبها من خارج ، وذلك بعد ما رجع من الحج وتملك تنبكت . فلما حدد الفقيه ، العدل ، القاضى العاقب بن القاضى محمود بناءها . خربها وسوَّاها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة ، صيّر الجميع مسجداً ، وزادها زيادة كبيرة .

فأول منْ تولى إمامتها الفقهاء السودانيون ، كانوا أيمة[2] فيها فى دولة أهل ملى وفى طائفة من دولة التوارق ، وآخر الأيمة منهم ، فيها القاضى كاتب موسى ، مكث فى الإمامة أربعين سنة لم يستنب[3] ولو فى صلاة واحدة لأجل صحة البدن التى رزقها الله تعالى بها .

وسُئل فى سبب تلك الصحة . فقال : احسبها من ثلاثة أشياء : ما بتُّ فى الهوى ولو ليلة واحدة فى الفصول الأربعة كلها . وما بتّ ليلة واحدة إلا ودهنتُ جسمى وبعد الفجر استحممتُ بالماء المسخون . وما خرجتُ لصلاة الصبح قط إلا بعد الفطور .

هكذا سمعتُه من والدى ، والفقيه سيد أحمد رحمهم الله تعالى ، ولا يقضى بين الناس إلا فى رحبته سس دبى فى وراء داره من جهة المشرق ينصب له ، المنصة تحت شجرة كبيرة كانت هنالك يومئذ ، وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس ، لتعلُّم العلم فى دولة أهل ملى بأمر السلطان العدل الحاج موسى .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون . جـ ٦ . ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) أيمة : أئمة .

(٣) يستنب : أى يتولى أحد الإمامة نيابة عنه ، بمعنى أنه لم ينقطع عن الصلاة يوماً .

فخلفه فى الإمامة والله أعلم جدُّ جدّتى ، أم والدى الفقيه الفاضل الخيِّر العابد سيدى عبد الله البلبالى ، وهو والله أعلم أول البيضان [1] صلى بالناس فى ذلك المسجد فى أواخر دولة التوارق ، وفى أوائل دولة سُن على ، جاء إلى تنبكت صحبةَ الفقيه الإمام كاتب موسى لما رجع من فاس هو مع أخويه والد عبد الرحمن المعروف بالفع تنك ، ووالد موسى كرى ، ووالد نانابير تور .

وقد احترمه الخارجى سُن على كثيراً جداً ، كان من عباد الله الصالحين زاهداً ، ورعاً ، لا يأكل إلا منْ عمل يده ، وظهرتْ له كرامات وبركات ، فدخل إليه سارق ليلة واحدة ، وطلع على نخلة كانت فى عرصة داره ، يريد أن يسرق تمرها ، فلصق على النخلة إلى الصباح ، فعفا عنه وأمره بالنزول فخرج .

ومن بركته أنه وقع مرضٌ فى تنبكت ، فى بعض الأحيان قلَّ منْ سَلمَ منه فاحتطب يوماً على رأسه إلى البلد وباعها ، فكلّ منْ توقد تلك الحطب ، واصطلى بها ، استشفى وبرا من حينه ، ثم عاود ذلك حتى فطنَ الناسُ له وبقى يخبر بعضهم بعضاً فازدحموا على شرائها ، فرفع الله تعالى ذلك المرض عن الناس ببركته .

وما خلفه فى الإمامة فيما أظن والله أعلم إلا الشيخ الفاضل ، الصالح ، الخيِّر ، الزاهد ، العابد ، العارف بالله تعالى ، الولى سيدى أبو القاسم التواتى . قد سكن فى جوار الجامع من جهة القبلة ، ليس بينها وبين داره إلا الطريق الضيق النافذ بعد ما ابتنى محضراً قبالة المسجد لاصقاً بها ، وفيها يقرأ الأطفال .

وبعد ما تُوفى خلفه فيها تلميذه السيد منصور الفزانى ، وبعده السيد الفاضل الصالح الخيِّر الزاهد ، المُقرئ عالم التجويد ، الفقيه إبراهيم الزّلفى وهو أستاذ والدى . والسيد أبو القاسم ، وهو الذى أحدث هذه المقبرة التى هى المقابر اليوم بعد ما امتلأتْ المقبرة القديمة التى حول المسجد وجعل عليها السور ثم خربت وامتحت وهو الذى ابتدأ قراءة الختمة فى المصحف بعد صلاة الجمعة مع قراءة حرف واحد من العشرينيات .

---

(١) البيضان : لقب كان يُطلق على قبائل البربر . نظرًا لبياض بشرتهم التى كانت عكس بشرة الأفارقة السوداء . وهى عكس سودان .

وحبس أمير المؤمنين إسكيا الحاج محمد تابوتاً فيها ستون جزءاً من المصحف ، فى ذلك الجامع لأجل تلك الختمة ، وبقيت تُقرأ فيها إلى العام العشرين بعد ألف ، بُدلت بأخرى حبسها الحاج على بن سالم بن عبيدة المسراتى [1] . وهى فى الجامع الآن.

وصلى الأمير الجمعة فيها يوماً من الأيام ، فتربَّص بعد السلام إلى أن يسلم على الشيخ الفاضل الإمام سيدى أبى القاسم التواتى ، فبعث أخاه فرن عمر ليخبره بإتيانه للسلام عليه فأدركهم فى قراءة المدح ، فوقف على رأسه ينتظر فراغهم . فلما تأخر اتبعه الأمير المرسول الآخر ، فنادى فرن برفع الصوت . فقال : إسكيا يريد الركوب ، فأجابه هو برفع الصوت : ما زالوا فى القراءة .

فنهاه الشيخ أشدّ النهى وقال له : اخفض صوتك أما علمتَ أن النبى ﷺ يحضر أينما يمدح ، فيقرأ عليه مصراعاً من أبيات المنشد وأدنيته بالذكر ، فهو به معى ، فبعد الفراغ جاء الأمير فسلَّم عليه ، وقرأ له الفاتحة ، وتأخر فى تلك الإمامة جداً ، كان ذا كرامات وبركات ، يُطعم الطعام وأكثر الطعام للمداحين لشدة محبته لمدح النبى ﷺ .

وموضع المدح قريبٌ لداره ، ومتى سمعهم يمدحون ، خرج إليهم بالرغائف السخونة ، كأنما خرجْنَ من الفرن تلك الساعة ، ولو كان فى جوف الليل حتى تبيَّن للناس أنها من الكرامة . ورُوىَ أن المومنين رأوا الماء يقطر فى ثيابه يوماً واحداً ، وهو فى صلاة الصبح ويغلس بها . فلما سلَّم سُئلَ عنه ، فقال : استغاث بى غريقٌ تلك الساعة فى بحر دب ، فأنقذته فمنها تلك الماء .

ورُوىَ أن الناسَ ازدحموا على نعشه فى الليلة المظلمة ، وتصادموا حتى سقطوا على الأرض جميعاً ، وبقى النعشُ فى الهوى واقفاً بقدرة البارى سبحانه ، حتى قاموا وأمسكوه وراء الناس هنالك جماعة كثيرة غير معروفين ، وذلك من كراماته .

وتوفى رحمه الله تعالى ، فى أوائل العام الثانى والعشرين بعد تسعمائة . وتُوفى الفقيه المختار النحوى فى أواخر تلك السنة ، كما وقفتُ عليه فى بعض التواريخ ، وسمعتُ بعض الفقهاء الذى له حفظ واعتناء بمعرفة التواريخ . إن سيدى أبا القاسم تُوفى فى العام الخامس والثلاثين بعد تسعمائة .

---

(١) نسبة لإقليم مصراتة فى ليبيا .

وإن أبا البركات الفقيه محمود بن عمر لم يتأخر بعده إلا عشرين سنة ، وأنه ما وقف قدام الناس للصلاة ، بعد ما سلم فى الإمامة لابن خاله ، الإمام اند غمحمد لأجل ضعف أعضائه المباركة من الكبر إلا فى جنازة سيدى أبى القاسم التواتى ، وفى جنازة شاهده فياض الصالحين .

وقيل : إن معه هنالك خمسين رجلاً تواتين أمثاله فى الصلاح والعبادة ، وكذلك المقبرة القديمة حول المسجد فيها كثيرٌ من عباد الله الصالحين . ورُوىَ أن رجلاً شريفاً من أهل بيت النبى ﷺ اعتكف فى المسجد القديم فى رمضان ، فخرج ليلة واحدة ، لقضاء حاجة الإنسان من الباب الوراءى نصف الليل .

فلما رجع أدرك فى المقابر كلها رجالاً جالسين وعليهم قمص وعمامات بيض فشقَّهم إلى المسجد ، ولَّما توسَّطهم قال له واحد منهم : سبحان الله كيف تطأنا بنعالك ، فقلع حتى دخل المسجد رحمه الله تعالى ورضى الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم فى الدنيا والآخرة آمين .

ولَّما تُوفى تلميذه سيد منصور ، فسلَّم الناسُ له حتى دُفنَ فيه ، وهم ثلاثة فى تلك الروضة ، قال والدى رحمه الله تعالى : إن لأستاذنا الشيخ إبراهيم الزلفى جاهاً عظيماً عند أهل تنبكت يومئذ لاعتقادهم فيه ، ولولا ذلك لا يسلمون له فى ذلك الموضع .

وبعد موت سيدى أبى القاسم ، اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه أحمد والد نانا سرك فرفعوا أمره إلى أبى البركات القاضى ، الفقيه محمود فكمل عليه وصار إماماً فى الجامع ، وبعد شهرين من ولايته جاء ابن سيد أبى القاسم من توات ، فمشى أولئك الجمعة إلى الفقيه ، فقالوا : نريد أنْ تجعل لنا ابن الشيخ إماماً . فقل لهم بعد تولية الامام أحمد : إنْ لم تخرجوا عنى أسجنكم جميعا ثم رجع إلى توات ، وبعد سبعة أشهر توفى الإمام أحمد المذكور رحمه الله تعالى .

واتفقوا على الفقيه سيد على الجزولى وهو طاريء ، فولاه الإمامة القاضى الفقيه محمود ، واستناب الفقيه الفاضل عثمان بن الحسن ابن الحاج التشتى ، متى عرض له العذر ، وهو من عباد الله الصالحين .

ولما حضرته الوفاة أعطاه ثياب جُمعته ، وله عادة فى المواساة على المصلين فى الجامع من رمضان إلى رمضان خمسمائة مثقال . وفى واحد من رمضان لم يُحصِّل

إلا مئتا مثقال ، فبيَّنه للفقيه محمود ، فلما جاء إلى صلاة الجمعة وفرغ من تحية المسجد نادى المؤذن ، فقال له : قُل لهؤلاء المسلمين مثل إمامكم هذا إذا ما زدتم عادته فى الخير فلا تنقصوه منها فى الساعة ، أعطوا الخمسمائة المعروفة زيادة على المايتين ، فكان سبعمائة مثقال فى ذلك العام .

فتوفى رحمه الله تعالى بعد مُكْث فى الإمامة ثمانية عشر سنة . فقال : الفقيه محمود جدير أن ينفرد بالروضة . فدفن خارج السور من جهة الشمال ، ثم أمر النائب الفقيه محمود عثمان أن يكون إماماً راتباً فامتنع ، وقال له : لا تخرج من يدى حتى تدلنى على منْ سيستحقها ، فدلَّه على الفقيه صدِّيق بن محمود فقبله ، فصار إماماً فى الجامع .

(الفقيه صدِّيق بن محمد)

وهو كابرى الأصل ، جنجوى المولد . كان فقيهاً ، عالماً ، فاضلاً ، خيِّراً صالحاً ، ارتحل من جنج إلى تنبكت وتوطن فيه إلى أنْ توفى . وسبب ارتحاله أنه صور مسألة من مسائل الفقه فى مدرسته يوماً واحداً وهنالك من طلبته الذى ارتحل إلى تنبكت بعد ما قرأ عليه ما قرأ ، ثم رجع إلى جنج ، فقال : صورة هذه المسالة ليستْ كذلك على ما سمعت من الفقهاء فى تنبكت . فقال الشيخ : ما هى ؟ قال : كذا وكذا . قال : ضيَّعنا عمرنا باطلاً ، فمن هذا ارتحاله ﷺ .

فانعقدتْ المحبةُ بينه وبين النائب ، وتحابَّا فى الله تعالى ، فصارا ملاطفين ، بحيث إذا تغدى كل واحد منهما بعث فضلته لصاحبه إلى داره ، وإذا تعشى كذلك ، ولا يتجهز للجمعة إلا فى داره لشدة المحبة . ثم شرَّق الإمام صديق للحج ، فحجَّ وزار واجتمع كثيرٌ من الفقهاء والصالحين ، منهم العارف بالله تعالى سيدى محمد البكرى الصديقى ، وهو يحب فقهاء تنبكت كثيراً أخذ يسأله عنهم وعن أحوالهم ، حتى قال له الذى استنبته : يصلى بالناس وراءك رجل صالح .

ولَّما رجع من الغيبة السلام ، وقال له : ادعُ الله لنا أنت الذى وقفتَ فى المواقف الكرام ، فقال له الإمام صدّيق : بل أنت الذى تدعو الله لنا ، أنت الذى قال فيك العارفُ بالله تعالى : سيدى محمد البكرى رجل صالح .

وحدثنى بعضُ الشيوخ المُعمِّرين من أهل تنبكت أنه حدّثه الفقيه الزاهد ، المودب خال والدى سيد عبد الرحمن الأنصارى . قال : حدثنى الإمام صدّيق قال : أخبرنى العارف بالله تعالى ، القطب سيدى محمد البكرى الصديقى أن عمارة تنبكت فى عمارة صومعة الجامع الكبير لا يفرط أهلها فيها ، ومكث فى الإمامة نحو أربع وعشرين سنة ، والله أعلم .

وفى صدر ولاية القاضى العاقب ، توفى رحمه الله تعالى ، فرتَّب النائب الفقيه عثمان بعد ما امتنع فحلف له إنْ لم يكُنْه ليسجننه . وفى العام الخامس والسبعين بعد تسعمائة توفى جدّ جدنا عمران ، فصلى عليه ودُفن فى المقبرة الجديدة ، فى جوار سيدى أبى القاسم التواتى ، وفى أواخر العام السابع والسبعين بعد تسعمائة توفى هو ودُفنَ فى المقبرة القديمة رحمهم الله تعالى ورضى عنهم .

فتنازع أهل الجامع الكبير فى الفقيه كداد الفلانى والفقيه أحمد بن الإمام صدّيق ، فاختار القاضى العاقب كداد ، فرتّبه إماماً فيه وهو فاضل من عباد الله الصالحين ، فمكث فى الإمامة اثنى عشر سنة فتولاها بعد موت الإمام أحمد بن الإمام صديق بأمر القاضى العاقب ، ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام . عشر سنين فى دولة أهل سغى .

وهو آخر أيمة الجامع الكبير فى دولتهم . وخمس سنين فى دولة السلطان الهاشمى أبى العباس مولانا أحمد ، وسيأتى تاريخ ولايتهما ، وتاريخ وفاتهما عند ذكر الوفيات وتواريخ فى العام الحادى والعشرين بعد الألف .

وأما مسجد سنكرى [1] فقد بَنته امرأة واحدة إغلالية ذات مال كثير ، فى أفعال البر وما رويناه فى الخبر ، ولكن لم نجد لبنائها تاريخاً ، فتولى إمامتها كثيرٌ من الأشياخ ، رحمهم الله تعالى وغفر لهم .

أما الذين عرفنا ترتيبهم . فالولى الصالح ، أبو البركات الفقيه محمود بن عمر بن محمد اقيت تولاها على إذن الفقيه القاضى حبيب ، ثم ابن خاله الإمام الند غمحمد ابن الفقيه المختار ، النَّحوى سلم له فيها لمَّا ضعفتْ أعضاؤه المباركة من الكبر .

---

(١) مسجد سنكرى : من المساجد المشهورة فى غرب إفريقيا ، وكان بمثابة جامع وجامعة .

وبعدما تُوفى الإمام اند غمحمد أمر القاضى محمد بن الفقيه محمود أن يتولاها ابنه الفقيه محمد ، فاعتذر بسلس البول فكلّفه بالبينة عليه ، فشهد له به الفقيه العاقب بن الفقيه العاقب بن الفقيه محمود ، فأقاله القاضى محمد وكلف شاهده [1] بها فتولاها . وبعد موت أخيه القاضى محمد كلفه الأمير اسكيا داوود بحمل القضاء ، فجمع بين المرتبتين إلى أنْ توفى .

ولم يستنبْ على الصلاة قط إلا فى مرض موته ، أمر ابن أخيه الفقيه ، الزاهد محمد الأمين بن القاضى محمد أن يصلى بالناس ، فأبت أمه نانا حفصة بنت الحاج أحمد بن عمر ، وبقى المسجد خالياً من صلاة الجماعة أياماً ، ثم أمر العلامة الفقيه محمد بغيغ أن يستناب مَنْ يصلى بالناس ، فقال : إلا أن تكون أنت إياه ، فقال له : لا يمكن ذلك لتعلق حقّ المساجد الأخرى .

اتفقتْ الجماعة على ابن أخيه الفقيه أبى بكر بن أحمد بير ، فقدّموه كرهاً فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فخرج من البلد هارباً ليلتئذ إلى قرية تنبهور، فتوفى بعده وقدمت الجماعة أخاه ولىّ الله تعالى الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود ، فكان راتباً فيها ويتكلف وهو فى غاية من المرض.

ولم يستنبْ ولو مرة واحدة إلى أنْ قبضهم محمود بن زرقون ، فتولى بعده الفقيه محمد بن محمد كرى ، إلى أنْ توفى فصلى بالناس القاضى سيد أحمد ، مدة قليلة . ثم ولاها ابنه الفقيه محمد ، ثم تولاها بعد موته الفقيه سنتاعو بن الهادى الودانى ، عن إذن القاضى عبد الرحمن بن أحمد معيا ، وهو الذى فيها الآن .

---

(١) شاهد القاضى : من المناصب المعاونة للقضاء ، وكانت وظيفته هى التوقيع مع القاضى على وثائق الصلح ، والنظر فى أحوال المحجور عليهم .